قـــراءة فـــي قنـــوات التخاطب فـــي التـــراث ق2هـ – ق5 هـ
في ضوء الدرس اللساني الحديث

د.فاتـــــح زيـــــــوان
جامعـــــــة تبســـــة

ملخص :

إذا كان المخاطِب يتتبع في بناء خطابه على ما تواضعت عليه العرب في كلامها إنْ كان عربيا ؛ فإنه يحتاج إلى وسائل يستعين بها في نقله إلى المخاطَب، حتى تتحقق الفائدة منه ، وهذا ما نحاول مناقشته والبحث فيه في هذه الدراسة ، بحصر قنوات التخاطب عند علماء العرب، على اختلافها : اللغوية وغير اللغوية ، طيلة حقبة زمنية تمتد على أربعة قرون هجرية، ويكون هذا باستنطاق نصوصهم وشرحها، ثم موازنتها بما هو شائع في الدراسات اللسانية الحديثة التي تناولت وسائل نقل الخطاب إلى المخاطَب، لنقف عند ميزات كل واحدة منها وفضائلها؛ ساعين إلى رصد أوجه التباين والتشابه في الفكرة والوسيلة في الثقافتين ، العربية والغربية، لنظهر فضل العرب ، وما أضافوه للثقافة العربية بخاصة، وللتراث الإنساني بعامة .

If the addresser builds his speech on what the Arabs agreed upon; he needs to draw on some means to help him transfer his speech to the addressee in order to be useful. The present study makes attempts to discuss in this study communication channels, whether linguistic and non-linguistic, among the Arab scholars throughout a period of four centuries AH.This can be done first, by studying and explaining their texts, and then comparing them to what is common in modern linguistic studies concerned by the ways of speech transfer to the addressee in order to show the advantages and virtues of each one of them separately; second by seeking to monitor the differences and similarities between the Arab and Western cultures in terms of thought

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1321

and means focusing on the Arab contributions for not only the Arab culture but the human heritage as well.

Abstract:

الدلالـــة اللّغويـــة والاصطلاحيـــة:

جاء في معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي"ت175هـــ"، القناةُ: كَظيمةٌ تُحفَر تحت الأرض لمجرى ماء الأنْبَاط [1]. والقناة في اصطلاح الدارسين؛ هي السند لنقل الخطاب إلى المخاطَب ، سواء باللفظ أو بالإشارة ، ذلك إنه:« لا متكلم إلا وهو محتـــاج إلى نصب علامة ، لتعريف ما في ضميره »[2]، فهي التي تسمح بقيام التخاطب بين المتخاطبين،وعبرها يصل الخطاب من الطرف الأول(المخاطِب) إلى الطرف الثاني(المخاطَب).

قنـــاة التخاطـــب في التـــراث:

أولى علماؤنا الأجلاء "قناة التخاطب" أهمية في أثناء دراستهم لمسألة الكلام ، وركزوا بالأساس على اللغة التي تقوم على عمودين، هما اللفظ و المعنى؛ أي لغة الكلام التي تتكون من حروف ومقاطع صوتية وكلمات متآلفة على وفق أصول وقواعد معلومة لتؤدي معاني معينة [3]؛ لأنَّ الظاهرة اللسانية هي عملية ذهنية، واللغة قدرة ذهنية:

« تتكون من مجموع المعارف اللغوية، بما فيها المعاني والمفردات والأصوات والقواعد التي تنظمها جميعا»[4]

والدماغ هو مركز النشاط اللغوي، على اعتبار أن المعاني سابقة للألفاظ ، و اللغة مبدؤها العقل ، وممرها اللفظ ورسمها الخط ، وبعد أن تتوضح الفكرة في ذهن صاحبها ، فإنه يترجمها إلى صورة صوتية منطوقة و مسموعة، ولكنهم لم يهملوا قناة أخرى ، غير اللغة، قال عبد القاهر الجرجاني"ت471 هـــ «...لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النَّفس...» [5] ، يعتمد عليها في نقل خطابهم، كالإشارة

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1321

والرمز والعلامة، وبهذا نكون أمام نظامين في نقل الخطاب، هما: النظام اللغوي، والنظام غير اللغوي ، أو لنقل نحن أمام قناتين، هما: اللغة، ببوصفها أصواتا ، واللغة ببعدّها نظاما من الرموز والإشارات والعلامات.

فاللغة بوصفها أصواتا ، استعملت من لدنهم قناة لنقل الخطاب – كما نعلم أن مصطلح اللغة بالمعنى الحديث كان يرادف عند القدماء مصطلح اللسان، وبالتالي صار اللسان عندهم أداة للتخاطب ، وعرض حاجياتهم على المخاطَبين، ولذلك نجد القرآن الكريم، يستعمل مصطلح " اللسان" عديلا لمصطلح "اللغة"، في مثل قوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُوْلٍ إلاَ بِلِسَان قَوْمِهِ» [6] – فقد ذهب سيبويه"ت180 هـ" إلى أنَّ الكلام هو قناة التخاطب ، ذلك أنَّ:« المشافهة لا تكون إلا من اثنين...» [7]. وهذا الجانب الشفهي يتوافر في الكلام الذي هو برأيه يحسن السكوت عليه، وتتحقق من خلاله الفائدة ، فيصير عنده بمثابة القناة المعتمد عليها في نقل المعاني ، باعتباره الإنجاز الفعلي للغة التي تظهر فيه ، ولذا نجد سيبويه، يكثر من استعمال مصطلح الكلام ، فيقول : « فهذا الغالب في كلام الناس... »[8]، وقوله: « وإنما يحكى بعد القول ما كان كلاما لا قولا...» [7]، وقوله أيضا: « واعلم أن ما يُجعَل بمترلة اسم ليست فيه هاء أقل في كلام العرب» [9] .فالكلام، يعد عنده وسيلة لنقل الأفكار والمعاني التي يرمي إليها المخاطِب، باعتباره التحقيق الفعلي للغة/اللسان، مستعينا في ذلك بشتى الأساليب اللغوية–اللفظ– التي يتضمنها ذلك اللسان ، نحو استعماله مثلا لأسماء الإشارة والضمائر في تعيين المعاني، كما يستعان بالقول التام الذي هو وثيق الصلة بالكلام، والمرتبط باللغة المنطوقة . ومن ثم يتبدى لنا من نصوصه أنه يعتبر الكلام الذي ترتسم فيه المشافهة السبيل الذي يتخذه المخاطِب لنقل ما يجيش في صدره من معان؛ثم يجسدها في صورة مكتوبة، ولذلك نراه يستعمل لفظ "سمعنا " التي ترتبط باللغة المنطوقة /اللسان ، فيقول: « وسمعنا بعض العرب الموثوق بهم يقول أتكلم بهذا...» [10] ، ولعل هذا ما وضَّحه من بعده الشافعي«ت204

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1321

هـ» الذي وظف اللسان وسيلة لنقل الكلام- ويقصد به اللغة العربية التي هي عنده قناة لنقل الكلام- والتعبير عن المعاني التي يريد إيصالها المخـاطِب باللغة العربية إلى المخاطَب الذي يفهمها ، فيقول :« وقضى أن يُنذَروا بلسانهم العربي... فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جَهْدُه ، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبدُه ورسُولُه... »[11]، فالقرآن نزل بلسان العرب، قال الشافعي:« فإنما خاطب الله بكتابه العربَ بلسانها، على ما تعرف من معانيها... »[12]، فقد اتخذ المولى جلّ شأنه اللسان العربي سبيلا وطريقا في مخاطبة عباده ، على اعتبار أن"النبي محمد عليه الصلاة والسلام" عربي، كما أنّ اللغة الشائعة آنذاك هي العربية الفصحى، التي تبناها سكان شبه الجزيرة العربية وسيلة للتعامل فيما بينهم ، ونقل حاجياتهم ومقاصدهم إلى بعض، فاللسان أو اللغة- برأيه- هي القناة المعـوَّل عليها في نقل الخطاب ، وقد تصاحبها الإشارة ، غير أنَّ الشافعي ، اهتم كثيرا باللسان- اللغة- أكثر من عنايته بالإشارة كقناة للتخاطب. وهذا ما تفضله الدراسات اللسانية الحديثة التي هي الأخرى ، اصطفت اللغة وسيلة للتخاطب- لغة الكلام- على أساس أنَّ إلى مستويين: مستوى الوحدات الدالة(لفظات) (Articulé ماهيتها التي تكمـــن في أصواتها تقبل التقطيع ،

والمستوى الثاني إلى وحدات غير دالة (أصوات) فهي: « بناء للتخاطب، تحلل من خلالها خبرات الإنسان في كل مجتمع » [13]. فالمادة الأولية للغة ؛ اللفظ الدي يظهر في الصوت الذي تنقل من خلاله معانيه. وقد ذهب **الجاحظ** «ت255هـ» هذا المذهب ، ورأى أنَّ اللغة /اللسان هي وسيلة نقل الكلام، معرفا إياها بقوله: «قال بعض جهابذة الألفاظ ونقَّاد المعاني:المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم والمتخلّجة في نفوسهم، والمتَّصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية، وبعيدة وحشية، محجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسانُ ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره ، وعلى ما لا يبلغه من حاجات

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1321

نفسه إلاَّ بغيره. وإنَّما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها . وإخبارُهم عنها، واستعمالهم إيَّاها.وهذه الخصال هي التي تقرّبها من الفهم ، وتُجَلّيها للعقل، وتجعل الخفي منها ظاهرا ، والغائب شاهدا، والبعيد قريبا.وهي التي تلخّص(توضح وتفسر وتبين) الملتبس ، وتحل المنعقد ، وتجعل المهمل مقيَّدا ، والمقيَّدمطلقا، والمجهول معروفا ، والوشي مألوفا ، والغُفل موسوما ، والموسوم معلوما وعلى قَدر وُضوح الدّلالة وصواب الإشارة ، وحسن الاختصار، ودقة المَدخل ، يكون إظهارُ المعنى. »[14]، وفي تعريفه هذا يشير إلى أن اللغة وسيلة لنقل الكلام بين المتخاطبين، وهي تتألف من حاجياته وأغراضه ، وهي تظهر في الكلام الذي يعد الناقل والإنجاز الفعلي لها ، وأنّها ألفاظ ذات معان ، موجودة في أدمغة الناس أو العباد ، حيث يعبر بها الإنسان عما يجيش في صدره ، وهي تحيا باستعمال الناس لها. وكلامه هذا يجسد بحق نظرية الإفادة التي جاء بها " رومان جاكبسون" والتي بناها على ستة عناصر، يمكننا استنتاجها من نص«الجاحظ» ، فهو يحدد **الخطاب** على أنه «المعاني القائمة في صدور الناس»، و**المخاطِب** هم «**الناس**»، أو الإنسان في عزلته، وهو يريد التخاطب والاتصال بالغير، و**المخاطَب**، هو الإنسان الآخر في عزلته" الذي لا يعرف ضمير صاحبه ، ولا حاجة أخيه وخليطه... « أمَّا **الوضع**، فيعبر عنه باللغة التي بها تحيا المعاني الخفية في صدر المخاطِب » وإنَّما يحيي تلك المعاني ذكرُهم لها ، وإخبارُهم عنها ، واستعمالهم إيَّاها «حسب الأعراف التي تواطأ عليها العباد ، و**المقام** ، عبَّر عنه بـــ «وعلى قَدر وُضوح الدّلالة وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المَدخل، يكون إظهارُ المعنى». ومن ثم تتبلور « دورة التخاطب» عند «الجاحظ» في هذا المخطط البياني على هذا النحو:

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1321

المقام (على قدر وضوح الدلالة)

المخاطِب(الناس) ـــــ الخطاب(المعاني القائمة في صدور الناس)ـــــ المخاطَب(الإنسان في عزلته)

قناة التخاطب (اللغة)

وضع الخطاب (وإنَّما يحيي تلك المعاني ذكرُهم لها، وإخبارُهم عنها، واستعمالهم إيَّاها)

ولم يكتفِ الجاحظ باللغة كقناة وحيدة للتخاطب، بل استعان بمختلف الوسائل البيانية، فقد رأى أن الإشارة ، يستعين بها المخاطِب في إفهام المخاطَب، حينما تعجز اللغة عن أداء ذلك ، فقال«: ...ولا بدَّ لبيان اللسان من أمور منها:إشارةُ اليد... » [15]، فاللغة بلا شك تسهم في الفهم والإفهام، كما يمكن أن تكون وسيلة للتعمية حينما يحيد بها المخاطِب عن أدائها الصحيح، قال "الجاحظ":« والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له ونعم الترجمانُ هي عنه.وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تُغني عن الخط...ولولا الإشارة لم يتفاهم الناسُ معنًى خاصّ الخاصّ، ولَجَهلوا هذا الباب البتَّة. ولولا أن تفسير هذه الكلمة يدخل في باب صناعة الكلام لفسرتها لكم.» [16].

ففي هذا النص نجده ينبه إلى أن اللغة أحيانا تعجز أن تفي بكل الأغراض أو أن تحيط بها. ولذلك فإن اللغة بحاجة إلى آلات بيانية أخرى في التعبير، منها الإشارة التي هي أهم أنواع الدلالات صلة باللغة حتى كاد حديثه يقتصر عليها، فما يبدو على ملامح المخاطِب وقسماته أو ما يقوم به من حركات تلمحها عين الناظر– « فأما الإشارة فأقرب المفهوم منها رفعُ الحواجب، وكسر الأجفان ، ولَيُّ الشّفاه، وتحريك الأعناق ، وقبضُ جِلْدَةِ الوجْهِ.... »[17]– تساعد المخاطَب على استيعاب الخطاب، وتفسير ما استغلق

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1321

فهمه، ولذلك جعل الجاحظ اللفظ : « للسامع، وجعل الإشارة للناظر، وأشرك الناظرَ واللامس في معرفة العَقدِ»(18) ، فالإشارة لها فضل كبير في اكتمال المفهوم والفائدة من الكلام لدى المخاطَب، حيث تكون بالجوارح أو أعضاء جسم الإنسان، نحو تحريك الرأس يمنة ويسرة مثلا، إحالة على الرفض، وتحريكه إلى الأسفل والأعلى؛ دليل على القبول والموافقة، قال الجاحظ:« وفي الإشارة بالطَّرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، مرفق كبير ومعونة حاضرة، في أمور يستُرها بعضُ الناس من بعض..» [19]. ولأهميتها رتبها في الصنف الثاني بعد اللفظ ، حين عدّد أصناف الدلالات على المعـــاني من لفظ وغير لفظ، وحصرها في خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: « أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العَقْد ، ثم الخط ، ثم الحال التي تسمى نِصبة... »[20]. وهذه الأصناف الخمسة؛ هي وسائل بيانية ، يستعان بها في نقل وعرض الكلام أو الخطاب، وهي كما نرى بعضها لغوي، مثل: **اللفظ**، والبعض الآخر غير لغوي ، مثل **الإشارة** ، و**العقد** ، و**النصبة** ، و**الخط** ، لكن يفيد كل واحد منها الآخر في إزالة اللبس والغموض في الكلام، فالنّصبة، واحدة من الدلالات الخمسة التي ذكرها الجاحظ ، وهي: «الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض وفي كل صامت وناطق وجامد، فالدلالة التي في الموات الجامد، كالدلالة التي في الحيوان الناطق.فالصامت ناطق من جهة الدلالة والعجماء معربة من جهة البرهان ،ولذلك قال الأول: "سَلِ الأرض فقُل:من شق أنهارِكِ ، وغرس أشجارِكِ ،وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حوارا ، أجابتك اعتبارا " »[21]. لقد أصبحت أشياء الكون واسطة لإيصال الخطاب إلى المخاطَب لينعم في جوهر الأشياء الماثلة أمامه، وهذا ما يندرج ضمن خطاب الاعتبار، باستخدام الوسائل غير اللغوية في الإبانة، لكن أهمها برأي الجاحظ ، هو الصوت الذي يعتبره آلة الكلام الذي يتألف من اللفظ والمعنى، فالناس يتخاطبون فيما بينهم باللغة، ولذلك، فهو وسيلته التي ينقل بها، مشبها إياه بالجوهر، مدرجا إياه في الرتبة الأولى من أصناف الدلالات على المعاني، وذلك

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1321

لخصوصياته، فبه يقوم التقطيع، وبه يوجد التأليف: « ولن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما موزونا ولا منثورا إلا بظهور الصوت ، ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف »[22]. ومن نصه هذا نراه، يفضل الصوت أو لغة الكلام على الإشارة في البيان والتبيين عن المعـــاني ، ذلك لأنه يقبل التقطيع والتصرّف من لدن المخاطِب، بعكس الإشارة التي هي صامتة، جامدة ، غير قابلة للتقطيع أو التصرف الفردي ، ولعل انتصاره للصوت ، قاده إلى إجراء مقارنة بينه وبين الصمت ، حيث استأثرت هذه المسألة أو الثنائية:الصمت والكلام بنصيب مهم من جهده ودراسته لها ، فهو نراه يسرد علينا بعض ميزات الصمت: « لو كان الكلامُ من فضَّة، لكان السُّكوت من ذهب »[23] ، ثم سرعان ما ينتهي إلى أن الكلام أفضل من الصمت، منتصرا للكلام على الصمت، بحجج مختلفة، منها أن الله سبحانه وتعالى أرسل أنبياءه بالكلام:«...لا بالصمت ، ومواضعُ الصَّمت المحمودة قليلة ، ومواضـــعُ الكلام المحمـــودة كثيرة ، وطول الصَّمت يُفسد اللِّسان.» [24] . وهو بهذا لم يقتصر في بيانه وتبيينه على اللغة فحسب، بل تعداه إلى وسائل أخرى ، أو ليس هو القائل: « فبأيِّ شيء بلغْتَ الإفهام وأوضحتَ عن المعنى، فذلك هو البيانُ في ذلك الموضع. »[25].

ويتجلى لنا مما سبق أن الجاحظ لم يستعمل مصطلح البيان- بمفهومه الضيق- وإنَّما في معناه الأوسع، ليضم وسائل البيان اللغوية وغير اللغوية، وإن اعترف صراحة بفضل اللغة أو الصوت في نقل الكلام / الخطاب، حيث تعد بحق أهم الوسائل البيانية عنده، لكنه لم يهمل أُثر بقية الوسائل البيانية الأخرى ، كالإشارة، والعقد الذي يراد به عنده تلك الحركة التي تتم بأصابع اليد، وتعني الاتفاق والموافقة على أمر، وهو آلة من آلات البيان التي تقتصر على عقد الحساب بالأصابع ، دون اللفظ والخط ، فللحساب منافع جليلة بحسب رأيه، وأهميته تظهر في إيصال المعنى للمخاطَب ، فلولا: « معرفة العباد بمعنى الحساب في الدنيا لما فهموا عن الله معنى الحساب في الآخرة » [26]، لكنه لم يفسر لنا

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1321

أكثر مما أوردناه، وهذا ما يجعل الغموض يكتنف المصطلح، على الرغم من التعـــريف الذي قدَّمه البغـــدادي بقـــوله: « هو نوع من الحساب يكون بأصابع اليدين »[27].

ويكمن دورها كغيرها من الوسائل البيانية الأخرى كالخط الذي هو آلة بيانية، يستخدم فيه صاحبه القلم وسيلة في التخاطب في أي مكان وزمان شاء ، سواء أكان المخـــاطَب حاضرا أم غائبا ، قال "الجاحظ ":« ولذلك قالوا : القلم أحد اللسانين » [28]. وهذه الوسائل ، يتمكن بموجبها المخاطِب من شرح وإماطة اللثام عن فحوى الخطاب، حيث أدرجت حديثا في مبحث أطلـــق عليه [29]. Procède de signification أضف إلى ذلك أنه تنبه إلى معينات الدلالة (Sémantique) علم الدلالة.

كل ما يحف بظاهرة الكلام من ملابسات ، يتم إزالتها باللغة ، باعتبار غايتها القصوى التفاهم وإزالة الغموض ، وهذه الأفكار اللسانية التي طرقها الجاحظ هي التي تشيع في الدرس اللساني الحديث، فنوام تشومسكي مثلا يرى أن دور اللغة يكمن في الإفادة والتخاطب والتفاهم ، وعدت الإفادة عنده أهم أركان العملية التخاطبية؛ التي يقصد منها الابتعاد عن اللبس والغموض،أو ما يسميه«نوام تشومسكي» «الغمـــوض التركي التـــركيبي» [30] . (Structural ambiguity)

وهذا ما أدركه الجاحظ الذي قال: « يكفي من حظ البلاغة أن لا يُؤتى السامع من سوء إفهام الناطق ولا يُؤتى الناطق من سوء فهم السامع »[31]، فالنظام اللغوي، خلق: « للإفادة ؛ أي لتبليغ أغراض المخاطِب للمستمع فهو آلة للتبليغ جوهره تابع لما ولي من أمر الإفادة »[32]. وهي– الفائدة– تتحقق بفضل اللغة، بوصفها وسيلة لنقل الخطاب؛ ولأهميتها هذه جعلتها المدرسة الوظيفية منطلقا لها[33] في بناء وتأسيس فكرها ومنهجها ، مستلهمة ذلك من فكرة "**دوسوسير**" القائلة بأن الوظيفة الأساسية للغة هي التخاطب والتبليغ، وذلك لمزيتها التي تتصف بالتغيّر والتبـــدل ، حيث يستطيع المخاطِب تعديل

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1321

خطابه، وحذف بعض عناصره، بعكس الإشارة تضيق عن التعبير عن كل ما يبتغيه المخاطِب: « ولما ضاقت الإشارة ولم تبلغ مبلغ الكلام والكتابة لم يصح أن تفيد في التفضيل سائر ما تفيد.» [34] ولا غرابة أننا نجد ابن جني"392 هـ" ، يخصص بابا لها، بعنوان" باب القول على اللغة وما هي"، باعتبارها قناة التخاطب، معرّفا إياها، بقوله:« أما حدها(اللغة) فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم » [35]. وهذا المفهوم، يمدنا بجملة من المنطلقات، منها أن اللغة ذات طبيعة صوتية، وهي بحسب كل مجتمع، إذ تتعدد اللغات ، وفقا لاختلاف المجتمعات، وتكمن وظيفتها الأساسية،كما رأى في التعبير عن الأغراض، وهي تظهر في الأصوات بوصفها آلات الكلام،على اعتبار أن الكلام هو التجسيد العيني لها باستعمال اللفظ.

فاللغة/اللسان إذا عنده تعتبر القناة الأساسية في نقل الكلام إلى المخاطَبين، من طريق الصوت الذي تتبلور فيه اللغة، كما تعين الإشارة المخاطِب في نقل كلامه إلى المخاطَب، **فابن جني** هو الآخر بيَّن دور الإشارة في إزالة اللبس والغموض عن الكلام، مجليا نفعها في زيادة الفهم لدى المخاطَب، وشرح ما استغلق فهمه لديه، ولذلك نراه يعتبر الإشارة في بعض المواضع: « أبلغ من عبارة» [36]،خاصة وأن اللغة تمت بفضل المواضعة التي صاحبها : « إيماء وإشارة بالجارحة نحو الموأ إليه... » [37].ولذلك حثَّ المخاطَب على حضور المخاطِب ومشاهدته ، حتى يتمكن من فهم خطابه أو كلامه جيدا، لأنه إدراكا منه أنه يوظف إشارات وملامح تظهر على تقاسيم وجهه، ومنها يستطيع فهم كثير من المعاني التي يريد نقلها إلى المخاطَبين، قد لا يفهمها لو اكتفى بسماعه من دون المشاهدة. فالإفهام إذا متعدد السبل ، فقد يكون باللغة المنطوقة، حيث يعتمد فيها صاحبها على اللفظ الذي آلته الصوت ، كما يكون باللغة المكتوبة ، نحو استعماله القلم – الخط أو الكتابة– وسيلة لنقل الأفكار والمعاني، مجسدا إياها في أوراق، يطلع عليها المخاطَب، أو يلجأ إلى توظيف الإشارات غير اللغوية في أثناء إلقائه للخطاب، بغية الإفهام، وهو بحسب

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1321

أوضاع كل لغة، فقد: « يقع...بغير اللسان العربي، لأن كل من أفهم بكلامه على شرط لغته فقد بين... »[38] كما ذهب إلى ذلك **ابن فارس**"ت395هـ" وهذه الفكرة ذاتها التي أبانها إخوان الصفا " الذين رأوا أن اللغة هي العنصر الجوهري الذي يتأسس عليه الاجتماع الإنساني بأكمله، فبها يتفاهمون، وبها يعبرون عن أغراضهم ، وأحاسيسهم ونقل خطاباتهم ، باستخدام الكلام أداة لإظهار تلك الملكة اللغوية المختزنة (اللغة) في ذهن كل فرد من أفراد الجماعة، مراعيا فيها مستوى المخاطَبين، فقالوا: «ما من أحد إلا وهو إذا عبَّر عمَّا في نفسه بلغ غرضه في إفهام السَّامع عنه ما يريده على حسب استطاعته وما تساعده عليه آلاته»[39]. فآلة الخطاب عندهم هي اللغة، بوصفها أصواتا و رموزا وإشارات ، فهي تقوم على الألفاظ بالأساس التي هي سمات دالات على المعاني، توظف في عملية الإفهام، ذلك أن وظيفة اللغة تكمن في بلوغ عمليتي الفهم والإفهام، ولهذا حرص "إخوان الصفا" على ربط فكرة العلامة بمبدأ دلالات الكلمات[40]، ليقسموا دلالات الألفاظ أقساما مختلفة[41]،فهناك :

أ – **دلالة المطابقة:** ويقصد بها تطابق الدال والمدلول– اللفظ والمعنى– لتشكل المعنى الكلي ، نحو: الإنسان الذي يدل على تمام الحيوان النـــاطق

ب– دلالة التضمن: وهي الدلالة الجزئية التي يمكن استلهامها من دلالة المطابقة

نحو: دلالة الإنسان على الجسم الحي ، أو الكائن الحي ....، فهي جزء من دلالة المطابقة. نمثل لهما بهذا المخطط البياني:

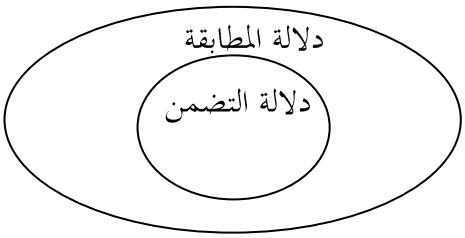

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1321

ج– دلالة الالتزام:

وتستخلص انطلاقا من قواعد معينة مسلم بها كإقبال الإنسان على العلم بالالتزام، لكونه حيوانا ناطقا؛ له عقل يستطيع بوساطته التعلم وطلب العلم .والشيء نفسه ينطبق على لفظة " السقف " التي تدل على الجدار بالاستتباع أو الالتزام ،حيث لا يوجد سقف دون جدار، وهذا المخطط ، يوضح أقسامها:

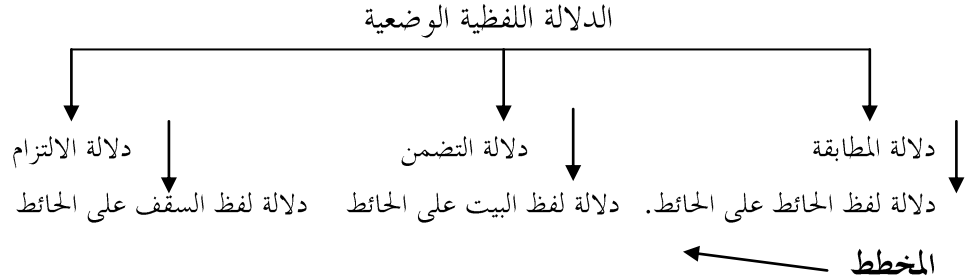

فالتأليف بين اللفـــظ ومعناه في اللغة أمر ضروري ، حتى تؤدي دورها المنوط بها ، ذلك أن العناصر الأولى أو المادة الأساسية المكونة للغة الكلام كما سبقت الإشارة هي اللفظ ومعناه الذي تبلوره المقاطع الصوتية التي ينتجها جهاز النطق ، حيث تركب هذه الألفاظ في صيغ وعبارات على وفق الأصول النحوية المقبولة والمتفق عليها في اللغة الواحدة ، لتكون جملا وعبارات ، والجمل والعبارات بدورها تأتلف في مقامات خاصة يفرضها الموقف الذهني أو الشعوري للمخاطِب ، وهكذا تؤدي عملية الكـــلام وظيفتها على النحو المتواطأ عليه من لدن الجماعة اللغوية.

حينما اعتبر«اللغة نظامًا من العلامات»[42].(Desaussure) ولهذا صدق"دوسوسير" فتآلف عناصر اللغة فيما بينها هو الذي يؤول إلى نقل معاني الخطاب على أكمل وجه للمخاطَب، وهذا النقل إما يكون من طريق الصوت– اللغة المنطوقة– أو القلم–اللغة المكتوبة–، ولعل هذا ما قصده **أبوحيان التوحيدي**"ت400 هـــ" الذي ربط كل ظواهر المخاطبة إبلاغا وتقبّلا بعنصر الحاجة التي عنها ينتج التفاوت في الإلحاح على

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1321

بناء الخطاب وخصائصه، معتبرا الصوت الذي آلته اللسان مطية للتعبير عن الحقائق والحاجات ونقل المعاني والأفكار إلى المخاطَب، ذلك أن العرب كانت تولي اهتماما بفصاحة المخاطِب، فهي أمة فصاحة وبلاغة في اللسان؛ ولذا أعطيت الكلام [43]، كما روي عنها، وهذا الوصف المتعلق ببلاغتها وقدرتها على استمالة المتلقين بحسن ألسنتها ، حمله القرآن الكريم في مختلف آياته، بقوله جل شأنه: «وَإِنْ يَقُوْلُوا، تَسْمَع لقولِهِمْ » [44] ، وقال أيضا: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجُبكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاة الدُّنْيَا » [45] وهذا الاهتمام من لدن العرب بالكلام ، جعلها تحتفي بالمخاطِب البليغ ، مثلما احتفت القبائل العربية بشاعرها الذي هو خطيبها وناطقها الرسمي في شتى المحافل، وأصبحت قيمة الرجل عندها تقاس بمدى فصاحته، وتعلو بقدر ما يقول لا بقدر ما يفعل[46].

فاللسان بهذا هو أداة نقل الخطاب الشفهيّ الذي يصنعه المخاطِب ، وهو يمثل الجـــانب المنطـــوق من اللغة التي استعاض عنها " أبو حيان التوحيدي" بمصطلح المذاكرة ، بقوله: «إذا كان الرجوع فيه إلى الكتب الموضوعة من أجله كـــافيا ، فليس ذلك مثل البحث عنه باللسان، و أخذ الجواب عنه بالبيان، و الكتاب موّات، و نصيب النّاظر فيه منظور وليس كذلك المذاكرة ، و المناظرة و المواتاة ، فإن ما ينال من هذه أغض و أطرأ و أهنأ وأمرأ»[47] ، فالتوحيدي يعبر عن المنطوق بالمذاكرة و المناظرة و يقابل الكتابة بالكتاب. وهنا نتساءل: لماذا يعد الكلام الشفهيّ " أغض و أطرأ و أهنأ و أمرأ " ؟.

لعل التوحيدي أدرك أن الكلام الشفهيّ يخضع لحيوية المخاطِب ولقابلية المخاطَب و تفاعله هذا في أثناء المذاكرة و المناظرة، في حين إن المكتوب "موّات" يفتقد الحيوية، فهو أشبه بالقبور التي تضم بين دفتيها أمواتا، يفتقدون طراوة الحياة ، فضلا عن ذلك فإن الكتاب يفترض قراءة أحـــادية الجانب، فالقارئ عندما تستغرق عليه المعاني يلجأ إلى التأويل ، وقد ينحرف عن المعنى المراد، على خلاف الحديث الذي تنساق معه النفس ، وبذلك تتسع دائرة التخاطب و تزداد فرصة المخاطِب في الإبداع، كما تزداد فرصة

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1321

المخاطَب في الفهم أكثر؛ لأن المخاطِب قريب منه ، يحدثه و يحادثه ، و يسهل على كل منهما الاستفسار عن الأمور التي تستغلق عليهما، وبذلك يحدث تبادل الأدوار بين المخاطِب و المخاطَب ، فتارة يصبح المخاطِب مخاطَبا ، و تارة أخرى يصبح المخاطَب مخاطِبا ، و تستمر قناة التخاطب بينهما ماداما يستعملان المواضعات اللغوية ذاتها ، ويراعيان المقام و مقتضى الحال.ومع اهتمامه بلغة الكلام ، إلا أننا نجده لم يغنه من توجيه عناية خاصة بلغة الكتابة أو الخط ، والتي عبر عنها بالقلم ، مبينا لنا مزيته على آلة الصوت، ففيه– برأيه– تتبدى الروية، والنجاة من الوقوع ، في الخطأ، خلافا للسان الذي أقرنه بصفة الاستعجال في الخطاب ، مما تتولد عنه الأغلاط والأخطاء في التعبير، جاء هذا في قوله:« والاتساع يتبع القلَمَ ما لا يتبع اللسان ، والرَّوِيَّة تتبع الخطَّ ما لا تتبع العبارة ...» [48]، فالمخاطِب مختار يبني خطابه لبنة لبنة، ويعاود النظر فيما يكتب ، و يغير فيه و يبّدل بحسب ما يعن له و تهديه إليه قريحته ، و في لحظة الكتابة يكون منفصلا عن مخاطبيه ؛ أي أنه غير مواجه لهم و هو بذلك يفضي بذاته براحة و اطمئنان دون حرج كبير ، كما أنه بمنجاة عن زلل الانفعال ، أما المخاطِب باللسان فإنه مضطر إلى الحديث على البديهة و الارتجال بحسب ما يسوقه إليه الحديث و مقتضيات الحـــال ، علاوة على ذلك فإنه مجبر على الاستجـــابة الفورية ، و مواجهة المخاطَب لذلك كانت حاله أحرج من حال الكاتب ، فتبدو عليه علامات الحرج من تغير ملامح الوجه و تلونه أو تصبب العرق ، أو تحريك الرأس واليدين ، وهذه لمن أكبر المرهقات التي لا يعرفها الكاتب الذي يعيش نوعا من الأريحية وعدم اللقاء بالمخاطَب. ومهما يكن من أمر فإن اتخاذ "اللسان" أو "القلم" وسيلة لنقل الخطاب، كلاهما يؤول إلى نتيجة واحدة ، وهي حصول معنى الخطاب لدى المخاطَب، وإن كنا نختلف مع التوحيدي في مفاضلته هذه، ذلك أنه– برأينا– أن لغة الكلام هي الأكثر وفاء وتعبيرا عن معاني الخطاب، خاصة وأننا كما نعلم أن طبيعة اللغة أصوات، فهناك ظواهر لغوية، لا نستطيع تمثليها بالخـــط أو الكتابة ، وإن

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1321

مثلناها تفقد روحها ومعناها ، انظر على سبيل المثال لا الحصر، ففي قولنا: **الله الله**. فهذه الجملة ، قد تفيد الإخبار أو(Intonation) ظاهرة التنغيم الاستهزاء ، أو الاستغراب والتعجب ، ولن تتحدد هذه المعاني إلا من خلال الصوت. ولعل هذا ما استدركه القاضي عبد الجبار"ت415 هـ" الذي اعتبر اللغة التي تظهر في الكلام الذي مادته الصوت، السبيل لنقل الخطاب، على اعتبار أن الكلام أصوات مقطعة منتظمة ومتناسقة فيما بينها، وبتآلفها يحدث التخاطب، وتتحقق فائدة الخطاب ، كما أعطى مسألة الإشارة أهمية، مبينا لنا حدود طاقتها التعبيرية ، ليظهر لنا الفارق بينها وبين اللغة التي آلتها الصوت ، إذ أن الإشارة قاصرة عن بلوغ درجتها، إخبارا وتبليغا، أضف إلى ذلك أنها جامدة ، بعكس لغة الكلام التي تتصف بالمرونة والتغيير من قبل المخاطِب. وعليه فإن الانتظام الصوتي للحروف في الكلام، هو الذي يولد خطابا منسجما ، يفهمه المخاطَب، يتم نقله عبر لغة الكلام ، ذلك أنّ الكلام في حد ذاته يعرَّف بأنه حروف منظومة وأصوات متقطّعة[49] ، ثم إن الحرف بمعزل عن غيره لا يفيد شيئا، فشأنه شأن صرير الباب[50]. وهنا، نجد الرجل بصورة وأخرى ، يحيلنا إلى كثير من اللطائف اللسانية الحديثة التي تبناها كثير من اللسانيين، مثل «دو سوسير» في إشارته إلى تقطيع الكلام من خلال أصواته ، وثانيها:إحالته إلى فكرة التي تمثل التتابع الصوتي في النطق، إذ لا يمكن النطق بعناصر اللغة في آن واحد، ولا يمكن Linéarité الخطية/الجمع بين مقطعين صوتيين في الخطاب في لحظة زمنية واحدة. وهذه الخصوصيات هي التي تميز لغة الكلام عن بقية القنوات الأخرى التي ينقل عبرها الخطاب ، وتفضيل لغة الكلام– اللغة المنطوقة– على غيرها من الوسائل البيانية الأخرى لم يقتصر على «القاضي عبد الجبار» ومن سبقوه فحسب، بل انتقل هذا الاهتمام أيضا إلى ثلة أخرى من علماء العربية الذين جاءوا من بعده، ومنهم «ابن سينا– ت428 هـ» الذي رأى أن حاجة الإنسانية إلى التخاطب والتفاهم ، دفعها إلى اختراع وسائل ، تتمكن بموجبها من تبليغ أغراضها ومعانيها بين بعضها البعض، فاختارت

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1321

الصوت، أو لنقل لغة الكلام على غيرها من القنوات، لما له من ميزة خاصة، تظهر في تقطيعه لحروفه من قبل مستعمليه، ثم تركيبها، كما استعانت بضرب آخر في تبليغ الحاجيات والأغراض، والمعاني، بحيث يعرفها الحاضر والغائب عن تلك اللحظة التي أعدّ فيها الخطاب، وتمثلت هذه الوسيلة في الكتابة– اللغة المكتوبة– التي بوساطتها، نقل تراثنا وحفظ خلال سنين وقرون غابرة من الاندثار والزوال، على اعتبار أن الحروف هي الرموز المكتوبة للأصوات، قال "ابن سينا:« لما كانت الطبيعة الإنسانية محتاجة إلى المحاورة لاضطرارها إلى المشاركة والمحاورة انبعثت إلى اختـــراع شيء يتوصل به إلى ذلك...فمالت الطبيعة إلى استعمال الصوت ووفقت من عند الخالق بآلات تقطيع الحروف ، وتركيبها معا ، ليدل بها على ما في النفس من أثر، ثم وقع اضطرار ثان إلى إعلام الغائبين من الموجودين في الزمان أو المستقبلين إعلاما بتدوين ما علم فاحتيـــج إلى ضرب آخر من الإعـــلام غير النطق فاخترعت أشكـــال الكتابة » [52]. ومن هنا فإن التخاطب يحقق النزعة الاجتماعية للإنسان ، حيث يكون بالصوت والكتابة، وجوهره هو العلامة ، نظرا لطبيعتها الدلالية والإبلاغية والتي تتألف من صورة سمعية ومفهوم، أو بعبارة "ابن سينا "من مسموع اسم ومعنى: «ومعنى دلالة اللفـــظ أن يكـــون إذا ارتسم في الخيـــال مسموع اسم ، ارتسم في النفس معنى ، فتعـــرف النفس أن هذا المسمـــوع لهذا المفهـــوم ، فكلمـــا أورده الحس على النفس التفتت إلى معناه »[53].

وهو– هنا– بلا شك يشير إلى العلامة اللسانية التي هي ثنائية المبنى ، تتكون من مسموع اسم ومعنى ، نحو كلمـــة «رجل» التي هي علامة لسانية ، مؤلفة من صورة سمعية ، وهو الإدراك النفسي لتتابع الأصوات (ر– ج– ل) ومعنى(مفهوم)، وهو مجموع السمات

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1321

الدلالية للكلمة(حي – ناطق– ذكر...) ، يمكننا تمثيلها بيانيا على هذا النحو:

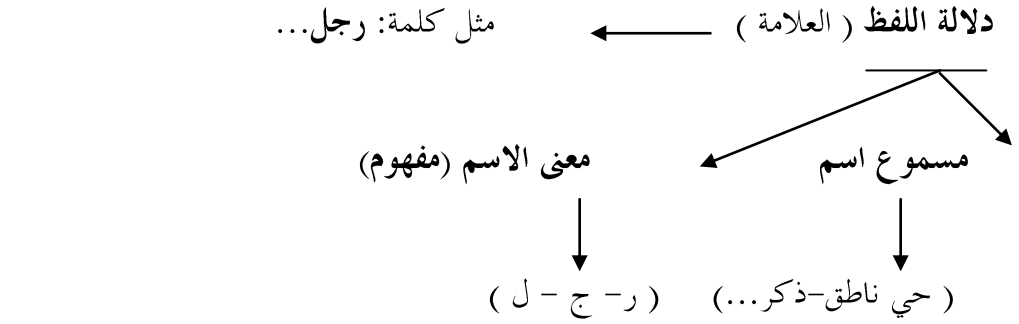

ومن ثم فإن المخاطب ، يتمكن من نقل أفكاره ومعانيه باستخدام اللغة التي هي فعل لساني ومنظومة علامات، سواء أكانت هذه العلامات لسانية، نحو استخدامه للفظ المقرون بالصوت، أم غير لسانية ، نحو استعماله للإشارات، والرموز ، وغيرها. إذ اللغة كما يقول"عبد القاهر الجرجاني":« تجري مجرى العلامات والسمات ولا معنى للعلامة و السمة حتى يحتمل الشيء ما جعلت العلامة دليلا عليه »[54].

وهو– هنا – يحرص على الإمساك بجذور الارتباط بين اللغة وحقيقتها العلامية ، إذ هي عبارة عن علامات ، تستخدم في التخاطب بين الأنام ، بوصفها أدلة على المعاني، مقررا أن الكلم المفردة التي تتكون منها اللغة تجري مجرى العلامات والسمات، فبها يبين المخاطِب عما يرمي إليه من معان ،وفائدة البيان باللفظ الذي جوهره الصوت لا ينحصر في تحقيق الفائدة أو المعنى فحسب، بحيث يصير شبيها لمعنى إشارة تحريك الرأس للأعلى والأسفل، التي تفيد القبول ، ليصحح ادعاء من اعتقدوا هذا ، فالبيان باللفظ ، يجعل الكلام جميلا،و يسحر متلقيه ، باستعمال اللغة التي تعارف عليها أبناء المجتمع الواحد، وهي إلى جانب احتوائها اللفظ الذي جوهره الصوت، تستعين بالإشارة وسيلة في الإفادة ، فقال: « ودخل على الناس من الغلط في معناه ما دخل عليهم فيه، فقد سبقت إلى نفوسهم اعتقادات فاسدة ، وظنون رديئة، وركبهم فيه جهل عظيم، وخطأ فاحش ترى كثيرا منهم لا يرى له معنى أكثر مما يرى للإشارة بالرأس والعين، وما تجده للخط والعقد

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1321

، يقول: إنما هو خبر واستخبار ، وأمر ونهي ، ولكل من ذلك لفظ قد وضع له ، وجعل دليلا عليه، فكل من عرف أوضاع لغة من اللغات، عربية كانت أو فارسية، وعرف المغزى من كل لفظة، ثم ساعده اللسان على النطق بها، وعلى تأدية أجراسها وحروفها، فهو بين في تلك اللغة، كامل الأداة ، بالغ من البيان المبلغ الذي لا مزيد عليه، منته إلى الغاية التي لا مذهب بعدها.. »[55].ومن نصه نلحظ أنه يشدد على ضرورة اكتمال آلة الكلام؛ بإتقانها ومعرفة ضوابطها ولفظها وأساليبها، معتبرا للفظ المرتبط بالصوت هو المكون الأساسي للغة، وبانتظامه وتناسقه، يبلغ به صاحبه مبتغاه ويصل ذهن المخاطَب، وهذا لن يتأتى إلا من خلال وضعه على النسق والمحك العربي ، مراعيا فيه معاني النحو، فبالنظم المستقيم يتحقق معنى الخطاب ، قال عبد القاهر الجرجاني:« ويجري لك هذا الشرح والتفسير في اللفظ كما جرى في اللفظ، لأنه إذا كان النظم سويا والتأليف مستقيما كان وصول المعنى إلى قلبك ، تِلو وصول اللفظ إلى سمعك..» [56]. على أساس أن « الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها فوائد... »[57].

ومن ثم فإن الإبانة عن فحوى الخطاب ، يكون باللغة، بوصفها منظومة من العلامات اللسانية ، شريطة أن يكون اللفظ: « طبقا للمعنى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه »[58] ، مرتبطا بغيره من الألفاظ في نسق وانسجام، ذلك إن اللفظ لا تفيد شيئا حينما تكون منعزلة، وأن الفصاحة: « لا تظهر في أفـــراد الكلمات وإنما تظهر بالضم على طـــريقة مخصوصة: فقولهم: بالضم لا يصح أن يراد به النطق باللفظة بعد اللفظة من غير اتصال يكون بين معنييهما،لأنه لو جاز أن يكون لمجرد ضم اللفظ إلى اللفظ تأثير في الفصاحة لكان ينبغي إذا قيل "ضحك خرج" أن يحدث من ضم (خرج) إلى (ضحك) فصاحة، وإذا بطل ذلك لم يبق إلا أن يكون المعنى في ضم الكلمة إلى الكلمة توخي معنى من معاني النحو فيما بينهما » [59] .

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1321

ويتبين لنا من نصوصه هذه ، سعيه الدؤوب إلى ربط حقائق اللغة بقوانين التركيب والأداء والإعجاز، ليصوغ لها قوانين، يأخذ بها الناظم للكلام أو الخطاب، نحو تذكيره بفائدة نظم الكلم، متخذا المجاز أسلوبا لإيصال معاني الكلام، وذلك: « لأن وصف اللفظة بأنها حقيقة أو مجاز حكم فيها من حيث إن لها دلالة على الجملة لا من حيث هي عربية أو فارسية أو سابقة في الوضع أو محدثة مولدة ....» [60].

كما أظهر "عبد القاهر الجرجاني" فضل اللسان في الإبانة عما في الضمير، تقلا عن كلام بعض البلغاء، بقوله: « كقول بعض البلغاء ....أداة يظهر بها حسن البيان، وظاهر يخبر عن الضمير، وشاهد إلى الحسن، وزارع يحرث المودة، وحاصد يحصد الضغينة، وملهٍ يونق الأسماع« » [61].

وتفطن أيضا إلى أن نقل الخبر لا يكون إلا باللغة أو اللسان، ولا يحصل إلا بوجود طرفين أساسين هما: المخبر به والمخبر عنه : «...لا يتصور أن يكون ههنا خبر حتى يكون مخبر به ومخبر عنه، كذلك لا يتصور أن يكون خبر حتى يكون له خبر يصدر عنه ويحصل من جهته، ويكون له نسبة إليه، وتعود التبعة فيه عليه... ». ومادامت اللغة مرتبطة بأهم عضو في الجهاز النطقي للإنسان وهو اللسان، سميت باسمه أو رديفا له، في قوله جلَّ شأنه: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُوْلٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ» [63]

ولأهمية اللسان عند العرب في نقل خطاباتهم، أولوه أهمية، وعملوا على رياضته حتى يرق ويلين ، لكي لا يبقى خسا غليظا (صلبا يبسا) [64] .

وجماع القول: إن عملية التخاطب، تتم باللغة التي هي أهم القنوات برأي علماء العرب القدماء، واللسانيين المحدثين على حد سواء ؛ لميزاتها وخصوصيتها، كقابليتها للتقطيع، ودقتها في التعبير، ومرونتها من خلال التصرف الفردي لها في تغيير أساليب الخطاب، بعكس الإشارة التي تعد الصنف الثاني أو الوسيلة البيانية الثانية التي يعول عليها في شرح الغموض الذي قد تعجز اللغة عن كشفه، فهي تفتقر لمثل هذه الخصوصيات.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1321

ومع هذه المفاضلة فإنهم لم يهملوا دور الوسائل البيانية غير اللغوية، كالإشارة التي تسهم بقسط كبير في إزالة الإبهام والالتباس عما قد يكتنف الخطاب، حينما تعجز اللغة عن الوفاء بذلك، أو رغبة المخاطِب في اقتصاد اللغة وتمثيل ما يقوله حسيا، وبذلك نكون أمام قناتين في التخاطب، إحداهما لغوية، جوهرها اللفظ والصوت، والأخرى تعتمد الإشارة أو الخط وسيلة في ذلك، كما يظهر في هذا المخطط البياني الذي نحدد فيه إجمالا الأطراف التي تقوم عليها عملية التخاطب، وقنواتها، وذلك على هذا النحو:

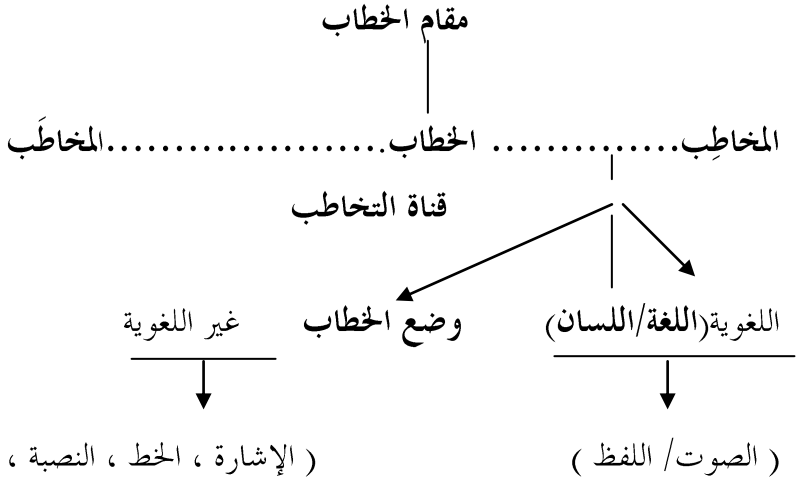

وقد توجهت أنظار علماء العرب قديما صوب اللغة، بشقيها المنطوق والمكتوب، من غير إهمالهم لدور الإشارات في نقل الخطاب إلى الآخرين، فهم كانوا على وعي عميق بماهية هذه القناة، ووظيفتها، و حاجتها لوسائل أخرى كالإشارة ؛ لتزيد الكلام توضيحا وبلاغة في البيان، ولئن ذكروا فضائل الإشارة ، فإنهم لم يخفوا تفضيلهم للصوت أو لغة الكلام على لغة الإشارة، و هذا ما انتصر إليه كثير من اللسانيين المحدثين، أمثال "اميل بنفنيست" الذي بنى الخطاب على التلفظ الذي يتم بين المتخاطبين ، حيث يؤثر المخاطِب في المخاطَب ، مركزا على المشافهة في تعيينه ، وفضل"أندري مارتيني"لغة الكلام عن لغة الكتابة"[65] ، نظرا لجمالياتها التي يصعب حصرها ، إذ ترتبط بدقة الصور الصوتية التي تميز الكلام في أثناء التعبير وغيرها من الفروقات ، "واهتم فردينان دو سوسير" كثيرا باللغة التي

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1321

تظهر في الكلام، لكن هذا لم يمنعه من توجيه عناية خاصة بلغة الإشارات، بعد تصوره لعلم (Sémiologie) جديد يدرس حياة العلامات في كنف الحياة الاجتماعية ، أطلق عليه اسم السمياء.

وفي ضوئه حدّ اللغة على أنَّها: « نظام من العلامات، تعبر عن فكر ما تشبه الكتابة، وأبجدية الصم والبكم والطقوس الرمزية، وضروب المجاملة، والإشارات العسكرية»[66]

فالبيان برأينا، يكون بلغة الكلام أو الكتابة، دون التفريط في الإشارة التي تعين في نقل الخطاب والتوسع فيه بالشرح، حتى يلم المخاطَب بحيثياته ، ولعل هذه أهم الأفكار اللسانية التي تناولها علماؤنا بشيء من الاستقصاء والتعمق ، ورأوا أن اكتمال آلات البيان وإتقانها من قبل المخـــاطِب ، ينتج عنها لا محالة سرعة المخاطِب في إفهـــام ونقل المعاني إلى المخاطَبين، وتصبح دليلا على إتقانه للصنعة التي تتعلق بنظم الخطاب، ففصاحته وبلاغته لن تتأتى إلا من خلال إدراك واف ومعرفة عميقة بآلة البيان، وإلمام شامل بمستوياتها :الصوتي والصرفي والنحوي/التركيبي/ والمعجمي/ الدلالي/ إن كانت لغة الكلام التي حرصوا على الاعتناء بها، و التي كانت ترادف عندهم اصطلاح اللسان ، لما لها من خصوصيات ومزايا لا تتوافر في بقية أنظمة التواصل التي يستعملها المخاطِب في نقل خطابه، وإذا خرست الألسن/لغة الكلام ، يلجأ المخاطِب إلى توظيف النظام الثاني في التخاطب في بيانه وتبيينه للمعاني التي يبتغي إفادتها للمخاطَب ، باستعماله للغة ذوي الاحتياجات الخاصة ، نحو لغة الصم والبكم القائمة على الحركات والإشارات التي بوساطتها، يتمكن من مخاطبة العباد ، فبها ينبههم، ويفهمهم بعض المعاني التي عجز عن أدائها وإيصالها إليهم من طريق لغة الكلام، وهم بدورهم ، يستطيعون نقل إليه بعض المعاني التي يلحظها في أبصارهم وعيونهم.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1321

ومحصول القول: إن علماء العرب القدماء ، استطاعوا الإلمام بقناة التخاطب، ودراستها ومعرفة ماهيتها ، كما تمكنوا من سبر أغوارها ، مركزين على اللغة وسيلة لنقل الخطاب؛ لأنها تحمل خصوصيات لا نجدها في غيرها من القنوات ، كقابليتها للتبدل والتغير، وتقطيعها إلى مستويين: مستوى الوحدات الدالة ، والآخر إلى مستوى الوحدات غير الدالة ، لكنهم لم يهملوا دور الإشارة في الخطاب، فقد أبانوا فضلها مدرجين إياها ضمن الوسائل البيانية غير اللغوية، وهذا يعني أنهم تعاملوا مع قناتي التخاطب بوجه عام ، ولم يقتصروا في نصوصهم على وسيلة واحدة، وتمثل هذا حقيقة مع "الجاحظ "و"ابن جني"، وغيرهما. ومن أفكارهم هذه ، نتلمس مظاهر اللسانيات المعاصرة كما هو الحال عند أندري مارتيني وسوسير وورومان جاكبسون، وغيرهم ، الذين عدوا اللغة أهم القنوات في التخاطب، دون أن يهملوا دور الإشارة في تحقيق معنى الخطاب.غير أنهم نحـــوا المنحى الذي سلكه العرب في تفضيلهم للغة الكلام. وهذه المفاضلة لم تأت من باب الصدفة ، وإنما لجملة من الخصوصيات التي تتوافر عليها لغة الكلام/الصوت ، منها قابليتها للتقطيع والتصرّف من لدن المخاطِب بعكس لغة الإشارة التي هي جامدة ، لا يستطيع صاحبها التصرف فيها.

إحالات البحث:

1 أبو حامد الغزالي، المستصفى من علم الأصول، تحقيق وتعليق محمد سليمان الأشقر، ج1،ص48

2- العين ، مادة (ق ن و).

3- ينظر ، أحمد محمد المعتوق ، الحصيلة اللغوية – أهميتها – مصادرها – وسائل تنميتها ،ص307

4- ينظر ، أحمد محمد المعتوق ، الحصيلة اللغوية – أهميتها – مصادرها – وسائل تنميتها ،ص33 .

5- دلائل الإعجاز في علم المعاني ، ص51

6- إبراهيم4/14.

7- الكتاب ، الطبعة الأميرية ، مج1 ، ج1 ، ص .196

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1321

8- الكتاب، الطبعة الأميرية ، مج1 ، ج1 ، ص242.

9- الكتاب، الطبعة الأميرية ، مج1 ، ج1 ،ص.62

10- الكتاب ، الطبعة الأميرية ، مج1 ، ج1 ،ص334.

11- الكتاب ، الطبعة الأميرية ، مج1 ، ج1 ،ص263.

12- الرسالة ، ص.48

13- الرسالة ، ص ص 51 ، 52.

14-« Une langue est un instrument de communication selon lequel l'expérience humaine - s'analyse différemment dans chaque communauté »-André.M, éléments de linguistique- générale,p20.-((la première articulation…en monèmes…deuxième en phonèmes))ibid,p17.

15- البيان والتبيين ، وضع حواشيه مُوفق شهاب الدين ، مج1 ، ج1 ، ص60.

16- الحيوان ، شرح وتحقيق يحي الشامي ، مج1 ، ج1 ، ص.39

17- البيان والتبيين ، مج1 ، ج1 ، ص ص61 ، .62

18- الحيوان ، شرح وتحقيق يحي الشامي ، مج1 ، ج1 ، ص.38

19- الحيوان ، شرح وتحقيق يحي الشامي ، مج1 ، ج1 ، ص37.

20- البيان والتبيين ، مج1 ، ج1 ، ص62.

21- البيان والتبيين ، مج1، ج1 ، ص61.

22- البيان والتبيين ، مج1، ج1 ، ص64.

23- البيان والتبيين ، مج1 ، ج1 ، ص63.

24- البيان والتبيين ، مج1 ، ج1 ، ص185.

25- البيان والتبيين ، مج1، ج1 ، ص186.

26- البيان والتبيين ، مج1 ، ج1 ، ص60.

27- البيان والتبيين ، مج1 ، ج1 ، ص ص 63 ، 64.

28- نقلا عن: محمد الصغير بناني ، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال " البيان والتبيين، ص80.

29- البيان والتبيين ،ج1 ، ص 63.

ينظر ، حمادي صمود ، التفكير البلاغي عند العرب/أسسه وتطوره ، ص219 (30)-

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1321

31- جون لايتز ، نظرية تشومسكي اللغوية، ترجمة حلمي خليل، ص 120

32- البيان والتبيين ، مج1 ، ج1 ، ص.68

33- ينظر، نهاد الموسى ، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث ، ص87.

34-« Une des innovations de la linguistique de Saussure est se déclarer essentiel à la- langue son rôle d'instrument de communication, rôle que les comparatistes considéraient au contraire comme une cause de dégénérescence. » - Oswald.Ducrot ,ibid ,p42.

35- عبد القادر المهيري ، نقلا عن بشير إبرير ، دلائل اكتساب اللغة في التراث اللساني العربي ، ص89 .

36- الخصائص ، بتحقيق محمد علي النجار ، ج1 ، ص34.

37- الخصائص ، ج1 ، ص81.

38- الخصائص ، ج1 ، ص 46.

39- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، ص16.

40- رسائل إخوان الصفا، بيروت ، ج3 ، 1957 ، ص121.

41- ينظر، رسائل إخوان الصفا ، ج1 ، ص398 .

42- ينظر ، عادل فاخوري ، علم الدلالة عند العرب/دراسة مقارنة مع السيمياء الحديثة ، ص43 .

(43)- ((La langue est un système de signes…))- Ibid , p22.

44- الإمتاع والمؤانسة ، صحح وضبطه وشرح غريبه أحمد أمين وأحمد الزين ، ص 69

45- المنافقون 4/63.

46- البقرة 204/2.

47- ينظر ، زكي حسام الدين ، الدلالة الصوتية ، ص .111

48- الإمتاع والمؤانسة ، ص ص43 ، 44 .

49- الإمتاع والمؤانسة ، ص353 .

50- ينظر ، المغني في أبواب التوحيد والعدل ، ج7 ، ص3.

51- ينظر ، المغني في أبواب التوحيد والعدل ، ج7 ، ص .3

52-((la langue le domaine des articulations…le caractère linéaire de la langue…))- Saussure, ibid, p p 136,147.

53- الشفاء (العبارة) ، ص ص1 ، 2.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1321

54- الشفاء (العبارة) ، ص ص 3 ، 4.

55- أسرار البلاغة في علم البيان ، ص325 .

56- دلائل الإعجاز في علم المعاني ، ص23.

57- دلائل الإعجاز في علم المعاني ، ص.183

58- دلائل الإعجاز في علم المعاني ، ص.345

59- دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 291.

60- دلائل الإعجاز في علم المعاني ، ص .291

61- أسرار البلاغة في علم البيان ، ص .303

62- دلائل الإعجاز في علم المعاني ، ص.80

63- إبراهيم4/14

64- ينظر ، البيان والتبيين ، وضع حواشيه موفق شهاب الدين ،مج1 ،ج1 ، ص186 .

65-((Langue parlée et langue écrite…on est tenté de distinguer le cas ou la langue écrite est une autre langue due le vernaculaire, de celui ou elle est conçue…lorsque la langue écrite est reconnaissable comme un état antérieur du parler ordinaire, il est difficile de préciser ..))-

-André, Elément de linguistique générale, p p158,159.

66 - « La langue est un système de signes exprimant des idées, et par là, comparable à l'écriture, à l'alphabet des sourds-muets, aux rites symboliques, aux formes de politesse, aux -signaux militaires, etc.… »- F. Desaussure,ibid,p22.

مصادر ومراجع البحث:

–القرآن الكريم ، برواية ورش عن نافع ، دار الفجر الإسلامي ، دمشق ، ط10، 2002 .

المصـــادر:

إخـــوان الصفـــا :

– الرسائل ، بيروت ، ج3 ، 1957.

– التوحيدي أبو حيان (علي بن محمد بن العباس– ت400هـــ) :

– الإمتاع والمؤانسة ، تحقيق وتعليق وفهرسة غريد الشيخ محمد و إيمان الشيخ محمد ، دار الكتاب العربي، بيروت ، ط1 ، 2004 .

– **الجاحظ (عمرو بن بحر**– ت255هـــ) :

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1321

– البيان والتبيين ، وضع حواشيه مُوفق شهاب الدّين، منشورات علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2 ، 2003

– الحيوان ، شرح وتحقيق يحي الشامي ، منشورات دار مكتبة الهلال ، بيروت ، ط1 ، 1986.

– **الجرجاني عبد القاهر(أبو بكر بن عبد الرحمن بن محمد** – ت 471هـ) :

– دلائل الإعجاز في علم المعاني ، صحَّح أصله علاَّمتا المعقول والمنقول ، محمد عبده ومحمد محمود التركزي الشنقيطي، علَّق عليه رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت ، ط3، 2001 .

– أسرار البلاغة في علم البيان ، دار المعرفة ، بيروت (د– ت).

– **ابن جني(أبو الفتح عثمان** – ت392هـ) :

– الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1999.

– **سيبويه(أبو بشر عثمان بن قنبر**– ت 180هـ):

– الكتاب ، مكتبة المتنبي، المطبعة الأميرية ببولاق ، القاهرة ، ط1 ، 1316 هـ .

– **ابن سينا(أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي**– ت428هـ):

– الشفاء (العبارة) ، تحقيق محمود الخضيري ، مراجعة إبراهيم مدكور، الهيئة المصرية العامة للتأليف ، القاهرة ، 1970.

– **الشافعي(أبو عبد الله محمد بن إدريس** – ت204هـ):

– الرّسالة ، بتحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، 1309.

– **الغزالي أبو حامد(محمد بن محمد الطوسي** – ت 505هـ):

– المستصفى من علم الأصول ، تحقيق وتعليق محمد سليمان الأشقر ، مؤسسة الرسالة، ط1 ، 1417هـ

– **ابن فارس(أبو الحسين أحمد**– ت395هـ):

– الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، حققه وقدم له مصطفى الشويمي مؤسسة بدران للطباعة والنشر ، بيروت لبنان ، 1963

– **القاضي عبد الجبار(أبو الحسن الأزدي** – ت415هـ):

– المغني في أبواب التوحيد والعدل ، تحقيق أمين الخولي ، القاهرة ، 1960 .

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1321

المراجع: العربية :

- **إبرير بشير** :- دلائل اكتساب اللغة في التراث اللساني العربي ، منشورات مخبر اللسانيات واللغة العربية ، قسم اللغة- العربية وآدابها ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باجي مختار، عنابة، مطبعة المعارف، عنابة، الجزائر،2007 .

- **بناني محمد الصغير** : - النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، 1983.

- **جون لاينز**:- اللغة والمعنى والسياق ، ترجمة عباس صادق الوهاب ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد .

- نظرية تشومسكي اللغوية، ترجمة حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ط1 ، 1985

حسام الدين زكي: - الدلالة الصوتية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، مصر ، ط1 .

- **صمود حمادي**: - التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس(مشروع قراءة) منشورات الجامعية التونسية، تونس، 1981

- **عادل فاخوري** :- علم الدلالة عند العرب، دراسة مقارنة مع السيمياء الحديثة ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، 1994.

- **المعتوق**(أحمد محمَّد):

- الحصيلة اللغوية أهميتها- مصادرها- وسائل تنميتها، عالم المعرفة 212 ، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، أغسطس/آب 1996 .

- **نهاد الموسى** : - نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، 1980.

المراجع الأجنبية:

- ***André Martinet***, *Elément de linguistique Générale, Armand colin-quatrième édition, Juin 1998*

- ***Ferdinand de Saussure***, *Cours de linguistique générale, édition talant kit ,Bejaia, Alger,2002.*

-***Oswald Ducrot/Tzvetan Todorov***/*Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, édition du seuil,1972*.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1321